الفصل السادس

المسلمون المُجدّدون والدولة في بنين

وينيز برقانر

عندما صار دستورها ساري المفعول في ديسمبر (كـــانون الأول) ١٩٩٥، أصبحت بنين جمهورية مدنية، تحمي الحريات الدينية وحرية التنظيم، وتعترف بالقيم الدينية، في حين تمنع أي حزب ديني من إنزال مرشحين في الانتخابات.

وقد أعقب قيام النظام السياسي الجديد – وهو ثمرة لمؤتمر وطني جامع، عُقد في فبراير ١٩٩٥، برئاسة المونسيير دي سوزا، كبير أساقفة كوتونو آنـــذاك – تكاثر لحركات دينية، معظمها كاثوليكي، وأهمية واضحة للدين، حتى في المجال السياسي، فقد اتجه نيسوفور سوجلو، الذي انتخب رئيساً للجمهورية في ١٩٩١ نحو السحر الأسود (الفودو)، واستن عطلة رسمية للاحتفال بالأديان التقليديـــة. وفي الانتخابات الرئاسية في عام ١٩٩٦، ترشح ماثيو كريكو كشخص جديد بعد أن تحول إلى الكنيسة البروتستانتية (بنتكوستال)، ولم يظهر قط في مكان عام إلا والإنجيل في يده (ستراندسبيرج؛ مايرارجو ٢٠٠٤)، وقد اختلط الخطاب الديني بالخطاب الوطني في شعار "الله يحب بنين"؛ فقد منحها الديموقراطيـــة والعـــون الأجنبي (مايرارجو ٢٠٠٢).

واذا قارنا وضع الأديان في بنين بوضعها في بلدان غرب - أفريقيا الأخرى؛ خاصة في نيجيريا المجاورة، فسوف يتضح أنه وضع أمثل، يتسم بالتعايش حيث نجد المسيحيين والمسلمين وأتباع الديانات التقليدية في الأسرة نفسها.. غير أن بعض القادة، حين رأوا فورة العودة للدين، التي صحبت نهاية العهد الثوري، خشوا مخاطر التطرف الديني، فأنشأوا منذ انعقاد المؤتمر الوطني الجامع في ١٩٩٥، حوارًا بين الأديان[١] استمر طوال السنوات الأولى لعقد التسعينيات، في محاضرات ومنشورات[٢]. وقد شاركت قلة من المسلمين في المؤتمر الوطني؛ حيث فضلوا في ذلك الوقت الإشتغال بالتجارة، ولم يكن لهم كبير اهتمام بالسياسة. غير أن الوضع أخذ في التغير؛ إذ أصبح الشباب المسلم يشارك في الأحزاب السياسة، ويتقدم كمرشحين في الانتخابات.

ويمكن القول بأن الإسلام يتمدد في كل أنحاء بنين، ففي الإحصاء السكاني عام ١٩٩٢ كان الإسلام ديانة ٢٠,٦ بالمائة من السكان، وارتفعت هذه النسبة إلى ٢٤,٤ في عام ٢٠٠٢.[٣] ويشكل المسلمون الأغلبية في شمال بنين؛ حيث تبلغ نسبتهم ٩٤,٣ بالمائة من سكان مالانثيل، ولكنهم يظلون أقلية في الجنوب؛ حيث تبلغ نسبتهم ١٤,٢ بالمائة من سكان كوتونو، و ٢٥,١ بالمائة من سكان پورتو نوڤو، وهما المدينتان الرئيسيتان.

دخل الإسلام إلى بنين عن طريق التجار، الذين ينتمي معظمهم الى الطرق الصوفية (التيجانية، ومؤخرًا، فرعها "النياسي"- من الشيخ السنغالي إبراهيما نياس، والتي حلت محل القادرية، والتي لا تزال نشطة في البلاد)، وقد تم توطين الإسلام ليصبح ديناً "محليًا". وشهد الإسلام نموًا متزايداً في النصف الثاني من القرن العشرين، وبداية القرن الحادي والعشرين؛ لكثرة أعداد من غيروا دينهم واعتنقوا الإسلام. وقد أصبح هذا الإسلام "التقليدي"، وسمي كذلك لتجذره في الممارسات الاجتماعية المحلية، طريقة حياة؛ فهو ينظم الزمن، وينظم الحياة الاجتماعية حول المسجد، وحول الاحتفالات المرتبطة بدورة الحياة "كالعقيقة"؛ أي احتفال تسمية المواليد الجدد في اليوم السابع بعد الولادة، والزواج، والمناسبات التي تقام بعد أسبوع، وأربعين يوماً وبعد ثلاثة أشهر من

الوفاة. وتنفصل كل هذه الاحتفالات عن العرافة والسحر، وعن *"الألفا"* (دارسي القرآن الذين تلقوا التدريب على هذه الطريقة) بتعاويذهم وصلواتهم، التي تشفي من كل العلل.[٤] وإلى جانب هذا الإسلام "الشعبي"، نمت الطرق الصوفية في بيئة فكرية، واتجهت وجهة باطنية. وقد تجددت الصوفية بدخول طريقتين جديدتين، هما: طريقة نعمة الله، والتي أدخلها في بنين في عام ١٩٩١ يعقوبو فاساسي، شيخ هذه الطريقة في غرب أفريقيا، والطريقة العلوية، والتي أدخلها في بورتو نوفو عام ١٩٩٥ الحاج صاليو لاتوندجي، وهو صيدلي تتلمذ على يد الشيخ بن تونس، الذي يعيش في فرنسا. ومع أن أتباع هاتين الطريقتين ليسوا بالكثرة، إلا أنهم جزء من الصفوة الفكرية والاجتماعية بالبلاد.

وفي بنين، مثلما هو الحال في بقية بلدان غرب أفريقيا، تعرّض هذا الفهم التقليدي للإسلام منذ السبعينيات لانتقادات خريجي الجامعات الإسلامية العربية، الذين يستند فهمهم للإسلام إلى القرآن والسنة فقط، والذين يريدون إزالة كل شيء لا يأتي من هذين المصدرين. وانضمّ إلى هؤلاء الخريجون *"المستعربون"*، ممن درسوا في أفريقيا جنوب الصحراء، في جامعات شمال نيجيريا والنيجر وكوت ديفوار (ساحل العاج). ويتلقى الخريجون الدعم من المنظمات غير الحكومية الإسلامية الدولية، والتي تواصل، أثناء تقديمها للعون الإنساني، العمل على خدمة هدفها الأساسي، وهو *الدعوة*. والمنظمات غير الحكومية الإسلامية الكبرى، ومقرها كوتونو، هي وكالة مسلمي أفريقيا الكويتية، والمنظمة العالمية للعون الإسلامي، والتي أسستها رابطة العالم الإسلامي (تحت التأثير السعودي)، وجمعية الدعوة الإسلامية الليبية، والمنتدى الإسلامي، وهي منظمة بريطانية أسسها مسلمون من أصول عربية وآسيوية[٥]، وهنالك منظمات إسلامية أخرى أقل أهمية، تنشط في نواحٍ أخرى من بنين. وتقدم كل هذه المنظمات العون الإسلامي، ولكن هدفها الرئيسي يظل هو *الدعوة*. وتعين "مكاتب *الدعوة*" خريجي الجامعات العربية كوعاظ (نحو أربعين لكل منظمة من المنظمات الكبرى). كذلك تُستخدم هذه المنظمات كرأس رمح للسياسات الأفريقية للدول، التي تمولها (شولز ١٩٩٣، وماتيس ١٩٩٣). ويتضح هذا جلياً في حالة جمعية الدعوة الإسلامية الليبية (كما تدل كتاباتها)، وفي ردهات المدرسة الفرنسية-العربية[٦]،

وفي عيادة المجمع الإسلامي في كوتونو، وكلها تبرز مقتطفات من خطب معمر القذافي. ولكن لابد أن نتذكر أن هذه المنظمات توفر فرص العمل، في المجال الديني لخريجي الجامعات العربية، في ظروف اجتماعية قاسية.

وعلى الرغم من أن الساحة الإسلامية المحلية تعاني، في غالب الأحيان، من توتر ونزاع بين التيارات القديمة والجديدة، إلا أن عددًا كبيرًا من المسلمين لاينتمون لطرق صوفية، وليسوا مجددين أو أصوليين أو ناشطين، ولا يشاركون في النزاعات الداخلية بين المسلمين.

وسأستعرض فيما يلي التيارات المختلفة، وأشكال العمل للتيارات التجديدية والأصولية، ثم انظر بعد ذلك في العلاقة بين هذه التيارات والدولة.

حركة التجديد الإسلامي: تجديد متشظٍ

الإسلام والحداثة

ترجع بعض جذور حركة التجديد الإسلامي – والتي انتظمت العالم الإسلامي بأسره – إلى الجزيرة العربية ومحمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢)، والذي تبع خطى ابن تيمية (١٢٦٣-١٣٢٨)، الذي ينادي بأنموذج صارم للإسلام. وكلمة *"تجديد"* تشير على وجه الدقة إلى الحركة التي واجهت، منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الأعوام بين ١٩٣٥، و١٩٤٠، الإسلام بإشكالية الحداثة، والتي كان على رأسها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا. وقد عنوا *"بالحداثة"* امتلاك ناصية التقدم العلمي والتكنولوجي، والذي رأوا ضرورة تبنيه دون تحفظ، مع عودة إلى دين السلف الصالح. ومنذ ذلك التاريخ، أثَر مفكرون آخرون في تطور الفكر الإسلامي في اتجاه، يميل إلى السياسة، بينهم المودودي (١٩٠٣-١٩٧٩) الذي أسس الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية عام ١٩٤١، وحسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩)، الذي أسس جماعة الإخوان المسلمين، في مصر، في عام ١٩٢٩، وكذلك سيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦)، الذي انخرط في الجماعة نفسها. وقد استمر تأثير هؤلاء المفكرين على المسلمين حتى الآن. أما في بنين، فلا يذكر أحد هؤلاء المجددين القدامى أو "المفكرين

الإسلاميين المعاصرين" (بنزين ٢٠٠٤)، وكلمة "*الإصلاح*" (والتي يرفضها أصحاب الدعوة، ويفضلون عليها "التجديد أو "الصحوة") لها معنى عملي، وتُعني بتطهير الإسلام من تجلياته المحلية (الطقوس وممارسات السحر)، والعودة إلى المصادر الأصلية، وهي القرآن والسنة. كذلك فإن لمفهوم "الحداثة" معانٍ وتفسيرات عديدة، تتراوح بين القراءة التي تنظر إلى النص في سياقه التاريخي، وتلك التي تنحو نحوًا أصوليًا، يفسر النصوص تفسيرًا حرفيًا، ويدعوا إلى العودة إلى المبادئ الأصولية، ويُريد أن يفرض على الجميع هذه الرؤية.

وعلى كل حال، فإن العلاقة بين الإسلام والحداثة هي لب المشكلة، وكل شيء يعتمد على ما نسميه حداثة، وتتغير هذه التسمية من فترة لأخرى. وقد ذكر أوليفييه روى في معرض حديثه عن الحداثة في الحركة الاصلاحية: "يمكن أن نُعَرّف الحداثة قياساً بالقيم (القيم الديمقراطية)، أو يمكن لنا أن نعرفها بمقدار انفصال الإنسان عن هوياته المتوارثة وارتباطاته، وعن طريق تأكيد الموضوع" (روي ٢٠٠٤). كما يؤكد روي، فإن هذا التعريف يشمل القيم في المجال الاجتماعي – السياسي، كما يشمل قيم الأفراد، وربط الالتزام الديني بالفرد يحرر الجميع من انتماءاتهم القديمة بالأسرة والقرية (ماري ١٩٩٧)، والتي تجذّر – على أية حال – أنموذجها في بنين، ويمكن معرفة الأصوليين من انتقاداتهم العنيفة للغرب ولقيمه ولسياساته.

وعلى الرغم من سهولة تحديد المكونات القصوى لحركة "التجديد" العريضة هذه، فإن الأمر يكتنفه الكثير من التعقيد؛ فحركة الإصلاح جامعة لخليط، يشمل من الإصلاح المتحرر المنفتح على المتغيرات الدولية، إلى الأصولية الحرفية المتشددة، هذا بالإضافة إلى وجود حركة إصلاحية محلية، ينادي بها رجال ونساء، تلقوا في معظم الأحيان قدرًا من التعليم، ويحتلون مناصب مهمة في الحكومة والقطاع الخاص، ممن يرفضون – جملة وتفصيلاً – فكرة الإصلاح. وهكذا قد يكتشف عالم الانتربولوجيا، الذي يريد إجراء مقابلة مع مسلم "تقليدي" أنه أمام شخص، لم يدرس في جامعة إسلامية، ولكنه يشارك في جمعيات تشرح التعاليم القرآنية للمسلمين، وتشجع على العودة إلى ممارسات أكثر التزاماً،

ويحافظ في الوقت نفسه على علاقاته مع الأئمة. وهؤلاء الأشخاص هم الذين يجعلون بناء جسور التواصل بين الاصلاحيين والصوفيين أمرًا ممكنًا (أوتايك ١٩٩٣، ٨)، رغم ندرة مثل هذه الجسور.

ولأغراض هذا الفصل، سأطلق تعبير "إصلاحيين" على أولئك الأشخاص، الذين يسعون إلى إصلاح الإسلام، وهم ينظرون إليه في الإطار الحالي، والذين لا يرون تناقضًا بين الدين والتحولات السياسية والاجتماعية، التي تحدث في بنين، ويجب التفريق بينهم وبين "الأصوليين"؛ فالأصولية تعني الالتزام الصارم بالنصوص الدينية وفهمها حرفيًا، وتبجيل فترة صدر الإسلام، والرغبة في إعادة ممارساته، مثل تقليد ملبس النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإطلاق اللحية مثله. ولا يرفض الأصوليون الحداثة، ولكنهم يعتقدون أنها مضمنة سلفًا في القرآن، ويقبلون التقدم العلمي والتكنولوجي، ولكنهم يعارضون تأثير هذا التقدم على المجتمع، وعلى طريقة حياة المسلمين، ووفق ما ذكره أحدهم:

> *هل يعني هذا التأثير التحرر على الطريقة الغربية؟ في رأيي أن الحداثة هي ما يمكن الإنسان من المواكبة، وقبول الاكتشافات العلمية، ومواءمتها مع الإسلام. وإذا كانت هذه هي الحداثة، فهي موجودة في القرآن والسورة الأولى في القرآن تحض على البحث، وتحدث القرآن عن علم الأحياء والطبيعة والطب، ولا يمكنك أن تكون مسلمًا وتتجنب الحداثة، غير أن المسلم يضع حدودًا لنفسه.(٢)*

ويوضح مثال واحد الفرق بين طرق التفكير في المشكلات المعاصرة؛ إذ ذكر لي أحد القلائل، الذين سموا أنفسهم "إصلاحيين"، وهو من خريجي الأزهر، ويدرّس في المدرسة الفرنسية-العربية في بورتو نوفو، ويشارك في حملات التوعية، التي تنظمها الأمم المتحدة عن الإيدز، ويناقش الوقاية من الإيدز في خطبه، معتبرًا أن التصدي لمشكلة الإيدز هو جزء من الإصلاح. وفي المقابل، أصرّ أحد الأصوليين أن الوقاية من الأيدز لا تقود إلا إلى "تشجيع الانحلال"، وأن البلدان التي تطبق الشريعة الإسلامية لا توجد بها مشكلة إيدز."

توجّه أصولي مُختلف السمات

نجد إلى جانب الجماعتين المنظمتين تنظيماً محكماً، والمعروفتين، أي جماعة التبليغ وجماعة الأحمدية، حركة واسعة غير منظمة، تسمى نفسها "سنيّة" وتلتزم بالحرفية و"العقائدية".

أما جماعة التبليغ، وهي منظمة تبشيرية، تأسست بالقرب من دلهي في عام ١٩٢٧، على يد العالم مولانا محمد الياس، فإنها تهدف إلى نشر الدين وترقية إيمان وممارسات المسلم (جابوريو ١٩٩٨). وقد انتشرت الجماعة في كل أنحاء العالم منذ عام ١٩٤٧، ووصلت إلى بنين عام ١٩٨٦ قادمة من نيجيريا، ونمت أساسًا في جنوب البلاد. وقد اجتذب اجتماعها الكبير في قلودچبي، على أطراف كوتونو، سبعمائة شخص، خلال ثلاثة أيام، في فبراير ٢٠٠٥. وربما وصل عدد *التبليغيين* في بنين إلى ألف. وتعتمد جماعة التبليغ في إيصال رسالتها على السفر في مجموعات، تلقى الدروس والمواعظ، وتنام في المساجد. ورغم أنهم ينتمون إلى منظمة عالمية، إلا انهم لا يتلقون أي دعم مالي، ويعيشون في فقر، ويسافرون على الأقدام، وعليهم أن يكسبوا قوتهم، على أن يظلوا دائماً رهن إشارة الجماعة؛ فالانتماء إلى الجماعة يتطلب التزاماً تاماً. ونتيجة لخفة حركتهم، فهم لايترددون في مغادرة بنين للوعظ في البلدان المجاورة، كما أنهم يستقبلون دعاة من الباكستان ونيجيريا وغانا. ويحاول التبليغيون إحياء نموذج مجتمع المسلمين الأوائل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد الإسلام الذهبي، ويتبعون نمطاً صارماً لقواعد السلوك اليومي، ويشغلهم دائماً هاجس الطهارة وخشية النار، وتلتزم نساؤهم بالنقاب.

والجماعة الدولية الأخرى، هي الأحمدية، والتي تأسست في الهند في قاديان حيث ولد ميرزا غلام أحمد (١٨٠٨-١٨٣٨)، المسيح المنتظر والمهدي"، والذي أعلن في ١٨٢٨ أنه مجدد اختاره الله (فريدمان ١٩٨٩). وقد دعا المسلمين إلى نبذ الجهاد، والالتزام بالتبشير السلمي. وشجع على التبشير الإسلامي في أنحاء الإمبراطورية البريطانية وخارجها كافة، وهو برنامج استطاع أتباعه تحقيقه بعد

موته، وقد استبدلوا "الجهاد"، بمعنى الحرب المقدسة، *"بالدعوة"* إلى الإسلام (جابوريو ٢٠٠٠).

وقد دخلت الطريقة الأحمدية إلى شرق وغرب أفريقيا، في الربع الأول، من القرن العشرين (أجايي وكراودر ١٩٨٨)، وفي بنين في الستينيات. وبعد أن طُردت من هناك أثناء الحكم الثوري، سُمح لها بفتح بعثتها في إطار التحول الديمقراطي. ويعيش "الأمير"، قائد الجماعة الروحي والزمني، في مقرها في پورتو نوڤو، ويبعث مبشريه إلى الأقاليم الأخرى. ولا يعترف الكثير من المسلمين الآخرين بالأحمدية كمسلمين مثلهم، ويمنعونهم أحياناً من أداء فريضة الحج إلى مكة. ويمكن وصف الطريقة الأحمدية – وهي طريقة متناقضة – بأنها أصولية؛ لأن أعضاءها يلتزمون حرفيًا بالقرآن، وبتعاليم ميرزا غلام أحمد، ويدعون، من ناحية أخرى، إلي التأقلم مع الواقع، وإلى النجاح الاجتماعي والحوار مع الطوائف الأخرى، كما يمنحون المرأة دوراً مهمًا. وفي خطبة عيد الأضحى في فبراير/شباط ٢٠٠٢، أدان أمير الجماعة هجمات ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، التي تمت بأسم الإسلام، مصرًا على مفهوم *"الجهاد* الأكبر"، وهو جهاد النفس. وللأحمدية علاقة ممتازة مع النظام الحالي، فقد أبلغت نشرة *"الرسالة"* (لو مساج) أتباع الطريقة "أن كل مواطن أحمدي حر في انتماءاته السياسية، ولكن عليه بعد نهاية الانتخابات دعم الدولة والحكومة القائمة".

ولا يفرق الأصوليون ذوو الميول الوهابية بين أنفسهم، والمسلمين الآخرين، من خلال إنشاء جمعيات خاصة بهم، بل يحاولون التأثير حيث يوجدون، سعيًا نحو تشجيع "الصحوة" لدى كل المسلمين. ويحاول الذين حصلوا على شهادات دينية أن يصبحوا أئمة؛ ليتمكنوا من قيادة الأمة الإسلامية. وبينما يدعوهم المسلمون "التقليديون" "وهابيين"، فإنهم لا يعرّفون أنفسهم على أنهم قادة هذا الفكر، مثل ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، بل يلتزمون عوضاً عن ذلك بما تعلموه في جامعات المدينة المنورة أو الكويت، ويصرّون على التمسك، قدر الإمكان، بالنصوص، أو بالأحرى بتفسيرهم لهذه النصوص. ولعل أكثر مفكريهم تأثيرًا هو أبوبكر جومي (١٩٢٢-٩٢؛ لويميه ٢٠٠٣، ١٩٩٧)، الذي أيد، في

نيجيريا في عام ١٩٧٩، قيام الحركة المتطرفة "جماعة إزالة البدع وإقامة السنة"، والتي أسهم فكرها وممارساتها في تطبيق الشريعة الإسلامية وحدودها في الولايات الشمالية لنيجيريا. وتخضع "جماعة إزالة البدع" في مالانقيل، المدينة الحدودية والسوق العالمي، مباشرة لإشراف المنظمة النيجيرية، ولم تستطع الإشراف إلا على مسجد واحد، بعد نزاعات محلية عنيفة (عبدالله ٢٠٠٣).. وعدا جماعة إزالة البدع، فثمة مجموعات صغيرة للغاية تسمى نفسها "أهل السنة"، وتمثل معظمها في بورتو نوفو، هذا الجناح المتشدد للفكر الوهابي. وهناك، أخيرًا مجموعات فضفاضة من التيارات "الأصولية"، التي توجد في شبكة المساجد المحلية، والمدارس القرآنية، والمدارس الفرنسية- العربية، وفي المنظمات الإسلامية (غير الحكومية) الدولية.

بروز الإسلام في الساحة العامة

تتمتع الأصولية ببروز واضح على الساحة العامة؛ مما يعطي غير المسلمين إحساساً مضخماً بأهميتها. والأصوليون -بحكم اهتماماتهم بالشكليات- يرتدون "الجلباب" والسراويل "فوق الكاحل"، وبعضهم يعتمر العمائم بينما يرسل الجميع اللحي ذات "الطول القانوني". ويبدو أنهم يفرضون على كل من يريد العمل في الدوائر، التي تتحكم في الشؤون الدينية أن يلتزم بهذا الزي. وعلى النساء أن يغطين أنفسهن من أخمص الرأس إلى أسفل القدم بالسواد، أما ارتداء الحجاب، غطاء الرأس - الذي ترتديه عضوات الجمعية الثقافية للطلبة - والتلاميذ المسلمين في بنين، فهو علامة احتجاج.

وقد أصبح للإسلام صيت بارز في المدن والأرياف على حد سواء؛ فالمساجد الكويتية التي تمولها المنظمات غير الحكومية، انتشرت في كافة أرجاء بنين، وقد تغير المشهد الديني الحضري، بعد تشييد المجمعات الإسلامية، التي تضم مسجداً ومركزاً ومدرسة قرآنية، وأحياناً ملجأ للأيتام، كما افتتح الأصوليون المكتبات لجذب انتباه الرأي العام. وأفلح الإسلاميون، خلال العقد المنصرم، في السيطرة على الرأي العام في مدينة چوجو بشكل مثير للانتباه

(برجاند ١٩٩٩). والاهتمام بالمدارس الإسلامية أو المدارس الفرنسية – العربية جزءًا من حركة التجديد في القرن العشرين؛ إذ يحرص كل المجددين والأصوليين على ضرورة التعليم الديني للأطفال، وتطوير التعليم باللغة الفرنسية، وأصبحت المدرسة أداة رئيسة *للدعوة*.

وفي بداية التسعينيات، أصبح تعليم اللغة العربية مرادفًا للأسلمة، وبُشّر به "كأداة لترسيخ الهويّة، وكلغة سياسة" (أوتايك ١٩٩٣، ١١). ورغم أن تعلم اللغة العربية في بنين اليوم لفهم القرآن، لازال يعتبر من الضرورات، المنظمات غير الحكومية تواصل توزيع تراجم للقرآن، ويفسر هذا أحد أسباب النجاح الباهر الذي صادفته الدعوة. وقد أسست هذه المنظمات، وبعض رجال الأعمال المدارس، بعد أن شجعهم على ذلك الطلب المتزايد على التعليم. ومنذ التحرير الاقتصادي، شجعت المقدرة المحدودة للمدارس العامة، وسمعتها المتدنية، على انتشار المدارس الخاصة، التي ترحب بالطلاب من كل شرائح المجتمع، بما في ذلك الآباء ذوو الدخل المحدود (خدم المنازل، وسائقي تاكسي الدراجات النارية مثلاً) التي ترسل أطفالها إلى المدارس الخاصة؛ نتيجة لأهمية التعليم بالنسبة لهم. وقد شهد قطاع التعليم التطور نفسه الذي شهده قطاع الصحة لأن إنسحاب الدولة من هذا المجال أفسح الطريق أمام القطاع الخاص، ومـلأت المؤسسات الإسلامية الفراغ الذي تركه تقاعس الدولة، ولذلك انفتح المجال واسعاً أمام المدارس الفرنسية–العربية، والتي – إلى جانب التعليم - توظف خريجي الجامعات الإسلامية. ويعكس نجاح المدارس الفرنسية–العربية الاقتناع، بأنها تضمن تزويد طلابها بالأخلاقيات الإسلامية، بينما قد تقود المدارس العامة والمسيحية الطلاب بعيداً عن دينهم.

وفي هذا الإطار، يسعى الأصوليون إلى السيطرة على مجالات بعينها، مثل المساجد والمدارس، ويخلقون بذلك نواة لشبكات، يتحركون خلالها لنشر الدعوة وللوعظ. وحين يتوافر التمويل من الخارج (تمويل المنظمات غير الحكومية عن طريق أموال النفط)، وكذلك الوعاظ، يمكن اجتذاب الجمهور تدريجيًا عن طريق العمل اليومي، على الصعيد المحلي. ويبدو أن العنصر المحلي يبزّ العنصر

الخارجي، إذ إن بعض الخريجين – والذين نافسوا الأئمة الموجودين بشراسة فور عودتهم إلى بلادهم – نصبّوا أنفسهم نشطاء دينيين، يغرسون أنفسهم في مجتمعاتهم، فور قبولهم لمنصب الإمام في أحد المساجد المهمة[٨].

غير أنه من المهم التزام الحيطة؛ حتى لا يتم الخلط بين أشتات المجددين المختلفين؛ لأن التجديد ظاهرة متعددة الأوجه في طور التكوين، يتم التعبير عن تعدديتها بأساليب ومواقف سياسية، متباينة لدى مختلف الجهات الفاعلة. وإذا اعتبر الجميع – لكونهم مسلمين – أنهم جزء من "الأمة"، يشتركون في الرغبة في العودة إلى الإسلام "الحق"، فلا يمكننا التعميم بشأن قراءتهم للعالم من حولهم، وتقييمهم للتحولات السياسية، التي حدثت في بنين في الخمس عشرة سنة الماضية، أو عن توقعاتهم للمستقبل. وللجميع رؤيتهم السياسية، غير أن محتوى هذه الرؤية وشكل الأفعال، التي يؤيدونها قد تختلف اختلافًا كبيراً.

المُجدّدون والسياسة والدولة:

"الوضع تحت السيطرة"

الأصوليون: "تجديد الحياة العامة في تجديد المجتمع"

الأصوليون – ما عدا أعضاء جماعة إزالة البدع – ليسوا إسلامويين؛ أي أولئك الذين يستخدمون الدين لأهداف سياسية. ولعلمهم بأنهم أقلية مسلمة، خاصة في المدن الساحلية، فإنهم لا يحاولون السعي نحو الاستيلاء على السلطة باسم الإسلام، وهم ينتمون إلى المجموعة التي يسميها أوليفر روي "الأصوليون الجدد"، الذين تميزهم قراءة حرفية صارمة لنصوص القرآن، وبموقف معاد للغرب (روي ٢٠٠٢).

ونعلم الآن أنه في كافة أنحاء العالم، يستطيع كل من يمتلك طبقاً لاقطاً للاقمار الصناعية أن يتلقى الإرسال التلفزيوني الأجنبي. وفي بنين، وجدتُ أن كل من تحدثت إليهم على علم بما يجري حولهم؛ فهم يتابعون نشرات الأخبار في الشبكات التلفزيونية الناطقة بالفرنسية، ويشاهدون القنوات العربية. ويجد

مستخدمو الإنترنت الحجج، التي تدعم آراءهم في المواقع الإلكترونية الإسلامية والإسلاموية. ورغم أن انتقاد النظام الدولي لا يقتصر على الأصوليين، إلا أنهم يميزون أنفسهم عن المسلمين الآخرين بخطابهم المعادي بشدة للغرب. وهم – مثلهم مثل كل أهل بنين – ينتقدون البنك الدولي وبرامج الإصلاح الهيكلي التي ينفذها، غير أن تطرفهم يتضح بجلاء في مجال العلاقات الدولية. كذلك تشمل انتقاداتهم الاستخدام غير السوي للتقدم العلمي، ولتدهور القيم الأسرية والانحطاط الخلقي. وقد أظهر المستجوبون في المقابلات التي أجريتها معهم، في الفترة من يناير /كانون الثاني إلى مارس /آذار ٢٠٠٥، اهتماماً شديداً بالموضوعات ذات الصلة بالإسلام، في نشرات الأخبار الفرنسية، وأدانوا ظاهرة العداء للإسلام وقانون مارس /آذار ٢٠٠٤، الذي حظر إظهار الرموز الدينية في المدارس، ودافعوا بضراوة عن طارق رمضان، الذي حسبوا أنه لم يلق معاملة عادلة من جانب وسائل الإعلام. وبالتالي، فإنه من المنطقي ألاّ يشعروا بالرضا عن نظام سياسي، يتبع الأنموذج الغربي، الذي لا يشاركونه في مفهومه للديمقراطية وللحريات الشخصية. ومثل معظم مواطنيهم، يدين الأصوليون الفساد، ولكنهم يميزون أنفسهم عن مواطنيهم بنوع الحلول، التي ينادون بها لحل مشكلات البلاد.

ويعتقد الأصوليون أن تجديد المجتمع يقود إلى تجديد الحياة العامة؛ لذلك فإنهم يبرزون أهمية السلوك القويم والأخلاق الحميدة، وينادون بأخلاقيات سامية للمجتمع. وللإجابة عن السؤال: "كيف تساهم في تنمية بلادك؟"، أجاب عدد من أهل السنة بما يلي:

> *نحن نساهم بطريقتنا الخاصة، من خلال تجديد الحياة الاجتماعية؛ لأننا نؤمن بأننا لو فشلنا في تحسين أخلاقيات المجتمع، ستصبح الحياة العامة لاأخلاقية. وحين يجد أحدهم أن ماله تم الاستيلاء عليه في مسجد أو كنيسة، سيقوم بالاستيلاء على الأموال العامة. ويمكننا إذًا أن نظهر النفوس عن طريق الدعوة، ولا نحتاج للاستيلاء على السلطة. والحصول على السلطة ليس منافيًا للإسلام، وإذا شعرت بأنك تستطيع أن تقوم بعمل ما لتحسين الوضع، فلابد أن تقدم على فعله؛ لأنك إن كنت تستطيع القيام به ولا تفعل، فإن ذلك من الخطايا .لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم زعيمًا روحيًا فحسب، بل كان منظمًا للمجتمع.*[1]

وفي مسائل الدين، يدين الأصوليون كل أشكال الفساد والاختلاس، والتي هي أبعد ما تكون عن أن يتم القضاء عليها في بنين (بلوندو أوليفييه دي ساردان ٢٠٠٢). ويشارك الشباب في العمل السياسي، من خلال المجال الديني. ويعكس الصراع حول السيطرة على المساجد تنافسًا بين الشباب والكبار، الذين يتحكمون في انتقال السلطة من جيل لآخر، وتستند مقترحاتهم للتغيير إلى المبادئ الأخلاقية، ويؤمنون أن تطبيق الشريعة سيحل كل المشكلات، كما أنهم ينظرون بعين خيالية، خالية من النقد للدول التي تطبق الشريعة:

بالنسبة لنا، فإن ذلك مقبول حيث يوجد القانون الإلهي، وليس من الممكن هنا فعل ذلك، إلا إذا كان الجميع مسلمين، فنحن في دولة علمانية. ولكنهم مقتنعون في دواخلهم أنه من الممكن تنظيم المجتمع، من خلال تطبيق الشريعة؛ لأنه في ظل الشريعة يتوجب على كل الأطفال الالتحاق بالمدارس، وتُحترم حقوق الإنسان، ومن يسرق يعتبر معتديًا على حقوق الغير، ويأمرنا الله بقطع يده، وحين نقطع يد السارق تقل السرقات. وحينما يرجمون ويجلدون الزناة، تقل مشكلة الإيدز، وكلما اشتد العقاب، قلت مشاكل الأمن. وقد علمنا من شمال نيجيريا أن الإجبو (المسيحيين) قد عادوا هناك؛ لأنهم يشعرون بالأمان ولا تغتصب نساؤهم. إن الله هو الذي منحنا الشريعة، وقد طبقت الشريعة أيام النبي محمد صلى الله عليه وسلم.(١٠)

وبالنسبة للتجديديين، تظل الشريعة هدفاً مثالياً، ولكنه صعب التحقيق؛ لأن الشريعة مقيدة بظروف تاريخية، تجعل المجتمع المعاصر لا يسمح بتكرارها.(١١) وينقسم التجديديون والأصوليون وفق علاقتهم بالتاريخ، فالأصوليون، الذين لايشكون في خرافة *"الأمة"* المثالية، يحلمون بنظام سياسي واجتماعي، يتمثل بأنموذج عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم لا ينظرون إلى ذلك بمعزل عن عالم اليوم، أي إنهم عكس جماعة التبليغ، الذين يقولون بأن هدف الحياة هو "الإعداد للدار الآخرة"، ويعتقدون أن القانون الإسلامي يمكنه تغيير الحياة على الأرض، وهم في هذا أقرب إلى الإسلامويين.

كيفية مواءمة المطالبة بالشريعة بالدولة المدنية

يمكن أن تطلق على بنين صفة العلمانية؛ إذا استخدمنا المعنى القانوني، مع أن المجتمع ليس علمانيًا (روي ٢٠٠٥)؛ بمعنى أن الدين والتدين يتخللان الحياة، ولا تشكل العلمانية مشكلة ما للمسلمين. ويحاول الأصوليون الذين يزعمون بأنهم يحترمون العلمانية، إيجاد توازن بين رغبتهم في تطبيق الشريعة من جهة، والعلمانية من جهة أخرى.

ويمس هذا التناقض الذي يستشعره الناس في حياتهم اليومية، أول ما يمس الزواج والأسرة والطلاق والميراث. وقد صدر العدد الأول من صحيفة *"الأمة الإسلامية"*، التي يصدرها مسجد حي زونجو في كوتونو، يوم ٢٧ يوليو/تموز ٢٠٠١ في الوقت نفسه الذي أُعتمد فيه قانون الأحوال الشخصية. وقد جاءت إحدى مقالاتها بعنوان: "لماذا لايكون هناك خيار تشريعي للمسلمين؟"، أكد فيه الكاتب اعترافه بعلمانية الدولة، وتساءل، مستخدمًا الحق في حرية المعتقد والدين، عما إذا كان من الممكن استثناء المسلمين من مواد القانون، التي تعارض الإسلام، وخلص إلى أنه:

> *قد آزف الوقت للنظر في إمكانية أن يختار بعض المواطنين خياراً تشريعيًا آخر، ويمكن للمسلمين حينئذ تطبيق التشريع القرآني في الحالات، التي لا تتفق مع قانون الأحوال الشخصية.*

غير أن هذا الاقتراح لم تتم متابعته في الأعداد التالية للصحيفة، ربما توخيًا للحذر؛ لأن السلطات كانت قد حذرت مسجد زونجو عدة مرات. وأكثر الموضوعات التي يتضح فيها التناقض بين القانون والشريعة، هي: تعدد الزوجات وعزل النساء، إذ تعيش نساء قبيلة الهوسا في عزلة خاصة، في أسر *"الألفا"* والأئمة. وقد اقتحم الجيش أثناء الثورة بعض المنازل في باراكو، وأجبر النسوة على الخروج (برجاند ١٩٩٨، ٢٢٣). وفي الجنوب، في المقابل، حيث دخل الإسلام عن طريق التجار من قبيلة اليوروبا، لا تمارس عادة عزل النساء، اللائي يلعبن دورًا مهمًا في المجتمع. ومثل حجاج باراكو (أولئك الذين أدوا

فريضة الحج)، قامت "الحاجات" من النساء، المشتغلات بالتجارة، في سوق دانتوكيا في كوتونو، بتمويل بناء مسجد؛ مما أكسبهن مكانة اجتماعية رفيعة، يستحيل الحصول عليها في شمال البلاد.[١٣] ويلتف المسلمون، الذين ينادون بتعدد الزوجات وبعزل النساء على القانون بتجنب الزواج المدني؛ مما يجعلهم يعتقدون أنهم يعيشون وفق الشريعة في حياتهم اليومية، على الأقل.

وإذا كان الإسلام لا يعارض العمل السياسي، كما أشار أحد المستجوبين، وفي غياب أي أمل في فرض أي نظام سياسي إسلامي، أليس من التناقض المشاركة في نظام سياسي، يتخذ الغرب الذي ينتقدونه أنموذجًا؟ ولا يبدو، في الوقت الراهن، أن الأصوليين المعروفين يشاركون في العمل السياسي المنظم، بل إنهم يفضلون تسخير جهودهم "للأسلمة من القاعدة"، بينما لا يتردد المجددون في الانخراط في العمل السياسي.

فصل الدين عن السياسة، والاشتغال بالسياسة

رغم أن المجددين يؤيدون مبدأ عدم خلط الدين بالعمل السياسي[١٤]، إلا أن ذلك لايعني الحذر المُقعِد أو الانسحاب، فهم يبذلون جهدًا جبارًا في أنشطة الجمعيات، ويسمح التفريق بين العمل والنشاط الديني لهم بالمشاركة الفردية في السياسة كمواطنين. ولا تتدخل الدولة مباشرة في شؤون المسلمين، إلا في الحالات الاستثنائية، تاركة معالجة المسائل الخاصة بالمسلمين للمؤسسات الوسيطة.

ويدل عدد الجمعيات الإسلامية المسجلة لدى إدارة العبادات والتقاليد، في وزارة الداخلية والأمن وإدارة الأراضي عن رغبة المسلمين في أن يصبحوا إحدى الجهات الفاعلة في المجتمع المدني.[١٥] ويتضح من سجل الجمعيات أن بعض القادة، الذين برزوا، في الساحة الإسلامية، يشرفون على عدد من الجمعيات. وفي عام ١٩٩٢، اجتمعت اثنتان وثلاثون جمعية إسلامية، في إستاد الصداقة بمبادرة من يعقوب فاساسي، وهو سياسي وصوفي، مساند للمؤتمر الوطني للجمعيات الإسلامية في بنين؛ للاتفاق على تنسيق أنشطة هذه الجمعيات، وقد

فشلت هذه المبادرة نتيجة للتنازع على قيادتها، ولم تُكرر التجربة بعد ذلك مطلقًا. وفي وقت لاحق – في عام ٢٠٠٠ تحديدًا – أسس إمام مسجد زونجو، وهو مركز للتجديد في كوتونو، مشكلة الجمعيات الإسلامية والمنظمات الإسلامية غير الحكومية في بنين؛ بغية توحيد هذه الجمعيات، وقد انضمت خمس عشرة جمعية للشبكة. وعمومًا، تقوم كل جمعية بأنشطتها في استقلال تام، ويركز بعضها على تشجيع التعليم الإسلامي.

وخير مثال لذلك هو منظمة الثقافة الإسلامية في بنين، وهي جزء من هذه الشبكة، وهدفها الأساسي هو التعليم الإسلامي، المتفق مع القرآن والسنة. وتعقد المنظمة اجتماعيْن في الشهر، في مسجد جمعية الدعوة الإسلامية؛ حيث يقدم المتعلمون باللغة العربية الدروس، ويلقي الإمام درسًا يعقبه النقاش. وتصف المنظمة نفسها بأنها غير سياسية، ولكن يمكن لأعضائها – بصفتهم الفردية – المشاركة في العمل السياسي المنظم، والانضمام للأحزاب، التي قد تعارض بعضها البعض. ويتصرف هؤلاء كعلمانيين، ويشاركون منذ الاستقلال في العمل السياسي، ويتقلدون المناصب النيابية والوزارية، ليس كمسلمين وإنما كمواطنين[١٦]؛ أي إنهم أصبحوا كسياسيين "مسلمين علمانيين".

أما إتحاد المرأة المسلمة في بنين، والذي تقوده نساء عاملات أو متقاعدات، فهو يعد مثالاً آخر.[١٧] ويركز برنامج عمل الاتحاد على الصحة والتعليم ومعرفة الدين الإسلامي، ويهتم بمحو الأمية، والتوعية بالإيدز، وتعليم الفتيات ومناهضة تدني مستوى التعليم. ويقدم الاتحاد المحاضرات، ويسعى – من فرط اهتمامه بتحسين وضع المرأة – إلى جعل النساء يعرفن حقوقهن وواجباتهن، وفقًا للقرآن." ومع أنهن يرفضن دعوة التجديد؛ "لأن هنالك إسلامًا واحدًا"، إلا أنهن يتبعن أسلوب المجددين في أن جهودهن لتحسين وضع المرأة تستند إلى فهمهن للإسلام، مع أن هذا الفهم يتعارض كليًا مع فهم أهل السنّة. كذلك ينظم الاتحاد المحاضرات، ويسعى إلى التأثير على مستقبل البلاد؛ استنادًا إلى أن الهدف هو "تدريب القيادات الإدارية الملتزمة أخلاقيًا". وهم يريدون للمسلمين –

والذين يشتكون أنهم ممثلين تمثيلاً غير عادل، في المجال السياسي، وفي المناصب التنفيذية العليا، اللحاق بالركب.[١٨]

ومع أن الأصوليين بارزون بحكم زيّهم المميّز، إلا أن المجددين – عمومًا – وبينهم الأصوليين، يتوخون الحذر دائمًا بالمقارنة مع أعضاء الكنائس التبشيرية البروتستانتية في جنوب بنين. وللمسيحية أيضًا أصولييها، والسؤال هو عما إذا كان التطرف الديني المتزايد سيهدد السلام، القائم الآن بين الطوائف. أما الدولة، فهي تحمي الحريات الدينية في بلد، يلعب فيه الدين دورًا بارزًا، ولكن تقع عليها في الوقت نفسه مسئولية حماية السلم الاجتماعي.

الدولة والمجتمعات المسلمة:

"الوضع تحت السيطرة"

رغم أن الحريات الدينية وحرية التجمع مصانة في بنين، إلا أن على المنظمات غير الحكومية والجمعيات أن تحصل على الاعتراف من وزارة الداخلية والأمن وإدارة الأراضي (بيرو ٢٠٠٥، ٣٥). وتستطيع الدولة لذلك ممارسة سيطرتها على الشؤون الإدارية، ولكنها نادرًا ما تتدخل تدخلاً مباشرًا في شؤون المسلمين؛ تاركة معالجة مشكلاتهم الداخلية للاتحاد الإسلامي لبنين. ونتيجة لتنامي المد الإسلاموي في العالم، ولقرب نيجيريا، يخضع الأصوليون – والذين يعتقد البعض أنهم تحت مراقبة لصيقة – لتزايد خفي في المراقبة. وبالإضافة إلى ذلك، تعتمد المنظمات غير الحكومية الإسلامية – مثلها مثل المنظمات الأخرى – على الوزارة ذات الصلة بأنشطتها؛ فيخضع بناء المراكز الصحية، مثلاً، لموافقة وزارة الصحة. ويقر جميع مديري هذه المنظمات أنهم يتعاونون مع الحكومة، التي لا تعارض مشاريعهم، ما دام بناؤهم للمدارس والمراكز الصحية يملأ الفراغ، الذي تتركه الدولة. وتُطبق الإدارات الحكومية القانون في بعض الحالات؛ فقد منعت الاتحاد، متذرعة بعلمانية الدولة، من بناء مسجد في حرم جامعة أبومي-كالاڤي (في ضواحي كوتونو). غير أن المسجد، والمعتبر قاعدة *للدعوة* في الجامعة، بُني في نهاية المطاف بتمويل سعودي.

كذلك، فإن وزارة التربية تلتزم جانب الحذر في منح الإذن لبناء المدارس الفرنسية-العربية، وقد اشتكى إمام مسجد زونجو، وهو شخصية بارزة في الأوساط التجديدية (أو الأصولية وفق آراء البعض في كوتونو)، ومؤسس المدرسة الفرنسية-العربية المواجهة للمسجد، أن وزيرًا مسلمًا هو الذي يضع معظم العقبات أمام بناء المدرسة. ولن تتم تسوية هذه المشكلة، إلا بعد انتخاب ماثيو كيروكو رئيسًا للجمهورية لأن هذا الحي – والذي تقطنه أغلبية مسلمة – أيده في انتخابات عام ١٩٩٦.[١٩] وتستطيع المنظمات الإسلامية، غير الحكومية، القوية الحصول على الموافقة الرسمية لبناء المدارس؛ لأن مستواها التعليمي أفضل – في معظم الأحيان – من مستوى المدارس العامة. ويتسم الموقف بالحرج بالنسبة للمدارس، التي أسسها، بموارد محدودة، خريجون هدفهم خلق وظائف لأنفسهم، كما أن المباني نادرًا ما تلتزم بالمواصفات المطلوبة، وبعضها مجرد أكواخ، بينما لا يمتلك المدرسون دائما المؤهلات اللازمة.

وحين تنشب الخلافات داخل الجماعات المسلمة، تتدخل الدولة فقط للحفاظ على الأمن والنظام، بينما يلعب الاتحاد الإسلامي لبنين دور الوسيط بجعل الجهات المسلمة – فرادى وجماعات – تُبدي التعاون مع السلطات السياسية المركزية.[٢٠] ويعكس الاتحاد، والذي أسس في عام ١٩٨٤، التقسيم الإداري للبلاد، وله مكاتب فرعية في المديريات والمحليات. وقد تدخل رئيسه في عدد من حالات النزاع بين "التقليديين" من جهة، والمسلمين *"المستعربين"* والمنظمات الإسلامية من جهة أخرى. وتنشأ هذه الخلافات عادة، حين تحاول إحدى المنظمات التي شيدت مسجدًا، أن تفرض اختيارها للإمام كما حدث في پاراكو حيث شيدت وكالة مسلمي أفريقيا عددًا من المساجد، بما في ذلك مجمع زونجو الإسلامي. وقد احتدت الأمور لدرجة أن وزير الداخلية، ذهب بنفسه للمكان، حين تم إعلان تعيين الإمام. كذلك نشأ نزاع حاد، حين أرادت وكالة مسلمي أفريقيا افتتاح مسجد خارج پاراكو، وجعله مسجدًا "جامعًا" تقام فيه صلاة الجمعة، رغم معارضة الأئمة المحليين لذلك. وقد حدثت مشاكل مماثلة في مناطق أخرى مما اضطر رئيس الاتحاد الإسلامي إلى التدخل في كل حالة من هذه الحالات.

كذلك تظل مسألة مواقيت المناسبات الدينية مشكلة متكررة، فبداية شهر رمضان يحددها المجلس الإسلامي الأعلى لبنين (وهو جزء من الاتحاد الإسلامى لبنين)، غير أن الأئمة التجديديين، الذين يلتزمون بظهور الأهلة في السعودية، لا يقبلون التواريخ التي يحددها المجلس، ولذلك يتم الاحتفال بالمناسبات الدينية في يومين متعاقبين؛ مما يعقد الحياة العامة، خاصة وأن المناسبات الدينية هي عطلات رسمية، معترف بها في بنين.

وحين أحس أعضاء الاتحاد أن هذه الخلافات تضعف صفّهم – وحرصاً منهم على حيوية أنشطة المنظمة – انتخبوا قيادة جديدة في مؤتمرهم، الذي انعقد في ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٣، وصمّموا على العمل بجد على نشر التعليم الإسلامي. وفي إطار هذه القيادة الجديدة، حيث يعمل "التقليديون"، جنبًا إلى جنب – مع أولئك الذين تلقوا التعليم على النمط الغربي، اتسمت السياسات بالمرونة، وتغلغلت الأفكار التجديدية في الاتحاد. وأحد مؤشرات هذا التغيير هو الأولوية الواضحة، التي مُنحت للتعليم الإسلامي. وأثناء مقابلاتي، بدا بعض أعضاء الاتحاد، وكأنهم يتأرجحون بين التقليدية والتجديد، وبعضهم بدا أكثر ميلاً للحداثة من غيرهم بدعوتهم لنبذ بعض الممارسات، ومواءمة الإسلام مع الظروف المعاصرة. غير أنهم جميعًا يعارضون نمو الاتجاهات الأصولية، محذرين من تكرار التجربة النيجيرية. وذكر معظمهم – رغم ذلك – أنهم غير قلقين، قائلين "إن الوضع تحت السيطرة". وتوضح البيانات التالية، التي جمعتها أثناء البحث الميداني، مشكلات هؤلاء وتصميمهم:

نحن الآن في خضم جهود، لجعل من يريدون فرض رؤيتهم للإسلام أكثر هدوءا، ونستطيع تحقيق الوحدة الإسلامية في البلاد. ففي كانوا يضعون أسلحتهم أثناء الصلاة، وإذا لم تفعل مثلهم، يقتلونك. ونحن لا نريد مثل هذه النزاعات في بلادنا، بل نجاهد من أجل إسلام مسالم.

وهناك بعض الشباب الذين عادوا من البلاد العربية، ويريدون تغيير الوضع، ولكنهم جوبهوا بمعارضة صلبة، وأظن أنهم قد هدأوا؛ لأنهم اضطروا لذلك، فحين حاولوا فرض إرادتهم، تم التغلب عليهم سريعًا.

ومع أن المسلمين هم الذين يتحكمون في شؤون أنفسهم، إلا أن ذلك لم يمنع الدولة من اللجوء إلى الوسائل، المعتادة؛ لفرض الرقابة على الأفراد والجماعات.

ويمر الإسلام في بنين بمرحلة تمدد، تُشجع مختلف الجهات على القيام *بالدعوة* على نحو متزايد. ويزيد من حيوية الإسلام، ليس فقط هذه التيارات النشطة الجديدة، بل أيضًا منافسة الكنائس التبشيرية البروتستانتية. ويظل التيار التقليدي والتجديدي ظاهرة حضرية؛ لأن الحياة الحضرية عرضة للتأثيرات الخارجية، وتُشجع النزعات الفردية، وتتقبل التغيير. كذلك.. فإن المدن تجتذب خريجي الجامعات الإسلامية، الباحثين عن العمل في المنظمات والمدارس الإسلامية. ويذهب الوعاظ من المدن إلى القرى؛ حيث تُشيد المنظمات غير الحكومية المساجد وبعض المدارس. وتكتسب الحركة التجديدية، بتعدديتها وتوجهاتها العملية، أنصارًا من مختلف شرائح المجتمع، يأتي بعضهم من الإسلام "التقليدي". وقد برز، من بين هؤلاء الأنصار، شخصيات تدعم التوجه الديموقراطي، وناشطون يعملون لتحقيق السلم الاجتماعي، وإسلام مسالم، يتعايش مع الأديان الأخرى، وخلفاء للحاج سالم سوار، الذي يدعوا إلى التقاليد الإسلامية الهادئة (ويلكس ١٩٦٨). ويدرك هؤلاء التحولات الجارية، ويقول أحد الأئمة: "يمكن أن نتحدث عن صحوة إسلامية، إذا تجنبنا فورة حماس الشباب؛ إذ إن عليهم تفهم الظروف المحيطة".

وقد أثّرت النزعات التجديدية والأصولية على الجماعات المسلمة، في مختلف أنحاء العالم، غير أن التيار التجديدي في بنين – بما في ذلك فرعه الأصولي المتشدد – أظهر أنه ملتزم بقيم مجتمعه وبالسلام، في مثال لغلبة المحلية على العالمية، فهناك مجتمع واحد يضم المسلمين والمسيحيين، ومعتنقي الأديان التقليدية، ولا تتحول فيه الخلافات السياسية إلى خلافات دينية. أما الدولة فقد آثرت – في ضوء هذه التيارات التجديدية التي يصعب تحديدها – أن تترك للاتحاد الإسلامي مهمة التصدي للمسائل التي تهم المسلمين. ويبدو أن الاتحاد الإسلامي يثق في قدرته على القيام بذلك، فقد أعلن أحد أعضائه "أن كل شيء في بنين تحت السيطرة، وليست هنالك أي مشكلات. وإذا برزت مشكلة ما،

فنحن مستعدون للتدخل". ولكن حتى وإن صحّ ذلك، فإلى متى يظل الوضع تحت السيطرة؟ إذ لا يجب أن ننسى أن الإسلام "التقليدي" يفتقد القيادات الشابة، وسيتغير وجه الإسلام بالضرورة بتعاقب الأجيال. كذلك، تجدد الطرق الصوفية نفسها بظهور طرق جديدة، لا تزال صفوية العضوية. وربما غلب على هذا التغيير تيار تجديدي محلي، يقترب من التمسك بحرفية النصوص الدينية، ولكنه في الوقت نفسه متمسك بنهج التسامح والانفتاح الذي ميّز، ولا يزال، الإسلام في بنين. ورغم وجود مثل هذه التيارات، إلا أن الأصولية المتشددة والمتطرفة، التي تعترف فقط بالقرآن والسنّة، وترفض أي اعتراف بأثر الثقافة المحلية، قد تعصف بذلك في خاتمة المطاف.

إضافة إلى ذلك، ودون الركون إلى الحتمية، يمكننا أن نتفكر في مستقبل العلاقة بين التطرف السياسي، وانعدام المساواة المتزايد. وقد خلُص مفكر مسلم من بنين، ينتمي إلى الطريقة القادرية ومن الناشطين في الساحة الإسلامية، زار إسلام أباد في يونيو (حزيران) ٢٠٠٤ لحضور ندوة، نظمتها الباكستان عن "الوسطية المستنيرة في مواجهة الإسلاموية والإرهاب" إلى التالي: "ما الذي يسبب الأصولية المتشددة؟ إنه الظلم الاجتماعي والفقر، اللذان يمهدان الطريق أمام الأصولية."

هوامش

١. "تقول لبعضنا البعض في أوساط القيادات الدينية أن علينا التصدي للتشدد في الديانات التقليدية، كالأينو (وهم أرباب الأرض عند الفون)، وتطرف بعض المسيحيين في ضوء تعدد الكنائس، وتطرف الشباب *"المستعرب"* الذي يعود من السعودية". مقابلة مع الإمام ليجالي، كوتونو، ١١ مارس/آذار ٢٠٠٥.

٢. برز اتجاهان في مجال تشجيع الحوار بين الأديان في التسعينيات، أحدهما الحركة التي بدأها يعقوب فاساسي، قائد طريقة نعمة الله الصوفية، الذي أسس في عام ١٩٩٥ الجماعة الإسلامية لإحياء الإسلام، والتي تُصدر نشرة "اقرأ أفريقيا" الربع سنوية. والثانية هي الحركة الفكرية الملتفة حول الشيخ بشير سومانو (من التيجانية النياسية)، مؤسس مجلة "نور الإسلام" ومركز الإسلام والتنمية للدراسات والبحوث.

٣. في الوقت ذاته، زادت الجماعات المسيحية، وغالبها تبشيري بروتستانتي، من ٦ بالمائة إلى ١٢,٥ بالمائة.

٤. للمزيد حول الإسلام "التقليدي" انظر بيجا ٢٠٠٣ وكولون ١٩٩٣.

٥. "كذلك، فإن أنشطة المنظمات الإسلامية الدولية مثل مؤسسة المنتدى الإسلامي.... ومنشوراتها وحملات التوعية (،) تضيف زخمًا جديدًا لتطلعات المسلمين لنظام إسلامي في نيجيريا" (بونزا ٢٠٠٤، ٥٤).

٦. المدارس الإسلامية، وتدعى المدرسة الفرنسية-العربية في بنين، تجمع بين تدريس المواد الحديثة وفق المناهج الوطنية، والتعليم الديني واللغة العربية، وتدريس بعض الحصص باللغة الفرنسية.
– أما في المدارس القرآنية، فيدرس القرآن فقط، وأحيانا اللغة العربية.

٧. مقابلة في مدرسة قرآنية في حي دودجي في پورتو نوفو، ٢٦ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٥.

٨. هذا صحيح في حالة مسجد مجمع حي زونجو في پاراكو، وأحسب أن حالة مسجد زونجو في كوتونو لا تختلف عن ذلك.

٩. مقابلة جماعية في مسجد حي تشبيبي في پورتو نوفو، ٢٦ يناير /كانون الثاني ٢٠٠٥.

١٠. المصدر نفسه. وأورد م. لاست الحجج نفسها والتطلعات نفسها، حين طُبقت الشريعة في شمال نيجيريا (لاست ٢٠٠٠).

١١. "للمسلمين المستنيرينْ الذين لا تأخذهم المؤسسات الإسلامية في الحسبان، تظل الشريعة، حتى في قانون الزواج، ذات تأثير ملهم وطريقة، مُعبّر عنها في ظروف تاريخية محددة" (كارى ١٩٩٣، ٣٤).

١٢. يصر أبادوراي (٢٠٠١) على البعد المتخيل للحياة المرتبطة بالشبكات الدولية في عالم معولم.

١٣. "الحاج" و"الحاجة" أصبح لقبين شائعين لسراة المسلمين. وتقوم توكورو، وهي امرأة ثرية تعمل بالتجارة في دانتكوبا تحظى بالاحترام لكرمها، بتمويل بناء مجمع إسلامي في حي أكاباكبا، الذي تقطنه في كوتونو.

١٤. بالنسبة لأوليفيه كاري، وهو خبير مشهور في الشؤون الإسلامية، فإن "التجديديين والإصلاحيين الحقيقيين القليلين" يقولون إن الدين والسياسة منفصلان نهائيًا، وأن النظرية الإسلامية نفسها وليس الممارسة فقط، فصلت بين الروحي والمادي منذ عصر النبوة" (كاري ١٩٩٣، ٣٤).

١٥. للمزيد حول هذا المفهوم، انظر بيرو ٢٠٠٥.

١٦. مقابلة مع يحي سالوف عليهو، رئيس منظمة الثقافة الإسلامية، كوتونو، ٣ مارس/آذار ٢٠٠٥.

١٧. مقابلة مع السيدة بيو تشاني، رئيسة اتحاد المرأة المسلمة في بنين، والحاجة هادية أفسا إجوي، نائبة الرئيس المسؤولة عن شؤون المدارس، في منزل السيدة تشاني، كوتونو، ١٠ مارس/آذار ٢٠٠٥.

١٨. مقابلة مع قادة المنظمة الثقافية للطلاب المسلمين في بنين، ٤ مارس/آذار ٢٠٠٥. وقد قُتل الأمير موادثرو دارامانى في حادث في أواخر ٢٠٠٥.

١٩. يؤيد معظم المسلمين في شمال بنين، وفي حي زونجو في كوتونو، ماثيو كيريكو.

٢٠. ماري ميران (٢٠٠٥) تعطي صورة سالبة للاتحاد الإسلامي لبنين مؤيدة لمنتقديه. وتشير، محقّة، أن المجتمع الإسلامي يظل منقسمًا، وتستند آرائي حول المنظمة على ملاحظاتي، التي حصلت عليها في زياراتي الميدانية، خلال سنوات عديدة متعاقبة في الشمال، وعلى زيارتي للجنوب من يناير إلى مارس ٢٠٠٥، وأيضًا على مقابلات مع الأشخاص، الذين شاركوا في هذه الأحداث.